# عن أي ديمقراطية يتحدثون -16- عقل التأسيس

17-1-2005

## ثمّة بالطبع علاقة جدلية بين كل أصناف الجبن والانهيار المريع للعقل السياسي الذي يحكم اليوم بلادنا. فخوف ما يسمى بالمعارضة من المواجهة الحقيقية مع الاستبداد هو الذي فتح الباب بمصراعيه أمام الانتهازية لتصول وتجول وتستأسد على البلاد والعباد دون أن تخشى شيئا أو أحدا. هكذا لم تعد السلطة تخشى أن يصبح الكذب هو الحقيقة والتزييف هو الواقع والفساد هو الأخلاق

**بقلم د . منصف المرزوقي**

اسياسة ليست فقط مبادئ وأهداف وإنما هي وسائل عملية لتحقيق هذه المبادئ والوصول إلى هذه الأهداف. هذه الوسائل هي مواقف وسلوكيات مبنية على عقلية وطرق تحليل وخيارات تجدها عند كل فاعل سياسي ويمكن تسميتها بالعقل السياسي. لا بدّ من العودة بالتدقيق إلى العقل السياسي العربي السائد اليوم وهو في اعتقادي طيف، لكن الغالب فيه نقطتين: العقل السياسي الجبان والعقل السياسي المتوحّش. وإن نتوقف عندهما بالتحليل فلسبب بديهي: لا مجال لبلورة المشروع الديمقراطي قبل التخلّص من هذين العقلين بما هما نتاج للاستبداد وإن تباينا شكلا ومضمونا.

* العقل السياسي الجبان

إنه جملة الآليات الفكرية التي تنتج مواقف وسلوكيات تصرّف التفاعل السلبي مع الاستبداد أي الخضوع له، وفي أحسن الأحوال محاولة التأثير عليه من الداخل علّ النمر ينقلب حملا وديعا.

يتمثّل هذا العقل أحسن ما يتمثّل في "المعارضات" التي يسمح بها النظام الاستبدادي ليعطي عن نفسه صورة الحداثة بل الديمقراطية ومن أهم خصائصه ومظاهره ما يلي:

- الهيكل أولا أخيرا: يقول هذا المبدأ العظيم بأولوية الهياكل على وظيفتها ويسنّ أنه إذا فرغت منظمة (مثل اتحاد الشغل) أو حزب (مثل الحزب المحكوم) أو منظمة (مثل أغلب المنظمات المهنية وحتى المجتمعية) من كل وظيفة سياسية، فلا بدّ من المحافظة على الوعاء الفارغ لأنه في آخر المطاف هو البضاعة. هكذا تجد في كل بلدان العالم أكثر من منظمة نقابية، إلا في تونس، حيث لا يجوز التخلي عن الوعاء خاصّة إذا ارتفع إلى مرتبة ما يسمى بالمكسب الوطني.

- المرونة "المعكرونية": لكي تفهم هذا المبدأ الأساسي، لا بدّ من القيام بتجربة علمية سهلة ومعبّرة. خذ رطلا من مقرونة "السباجيتي"، ضعه يغلي ثلاث ساعات في الماء ( إذا أردت أن تغتنم فرصة التجربة العلمية لتتغذى، فعشرون دقيقة كافية كما يعرف حتى أردأ طبّاخ)، حاول بعدها أن تجعل "السباقيتي" تنتصب واقفة، ولو بإسنادها على أي شيء صلب. ستكتشف استحالة الأمر لما اعتراها من ليونة مفرطة وميوعة تامّة، تجعلها عجينة لا تنتصب واقفة، وإنما تتمدّد وتنبطح وتلتصق بكل ما يحملها. ها قد فهمت بعمق أهمّ خصائص هذا الفكر العجيب الذي يمكن أن تشبّهه بكائن يريد الانتصاب ليس له عمود فقري. وبالمقياس الذي فرضه العقل المريض للمرونة، أصبحت المواقف المعتدلة والمتمسكة بالحد الأدنى من المبادئ والحقوق والكرامة والتي يمكن أن تصنّف في أي بلد طبيعي وسطية، أقول أصبحت تدخل في باب التشدّد والتنطّع والتطرّف والتهوّر .

- الواقعية السلبية: إنه تحليل للواقع يدّعي الواقعية أي التجرّد والموضوعية والبعد عن الأوهام والأحلام والإرادية والمغامراتية الخ. لكنه عقل لا يرى إلا موازين القوى المختلة لصالح العدوّ ولا يبرز إلا العوامل المحبطة للعزائم ولا يركّز إلا على ما يدعو إلى التريث والتفادي وعدم المواجهة والتضحية "العبثية". هكذا تصبح الواقعية تبرير أسباب القعود والرضوخ وتلك وظيفتها منذ البداية.

ففي تونس مثلا خلفت لنا التركة البورقيبية مبدأ "خذ وطالب". لكن العقل المريض جعل الشعار "طالب ثم طالب واصل الطلب حتى وإن لم تأخذ شيئا، المهمّ أن تستميت في الطلب رغم الداء والأعداء". طالب أصحاب هذه المنهجية مثلا في تونس سنة 1989، بانتخابات حرّة ونزيهة، "سبّقوا الخير" فلم يحصدوا إلا الخازوق. لكنهم قرروا المطالبة بنفس الشيء في 1994، لإثبات تمسّكهم بالسذاجة كخيار وكمهرب، قرّروا المشاركة في العملية الواضحة الغشّ المفضوحة التزييف، متعللين بأنهم على الأقل سيأخذون التمرين على الانتخابات والحضور في الجهات وبناء القواعد وفضح الخروقات. لا أخذوا خلايا في الجهات ولا تمرين ولا مقاعد غير التي وهبت ولا تزال لأهل الطاعة، وضاعت أصوات الاحتجاج في بيانات عصماء لم يحفل بها أحد. لكنهم قرروا سنة 1999 أن يمعنوا في الطلب تأكيدا على حقّهم غير القابل للتصرّف في استعمال الاستحقاقات الانتخابية لتبليغ صوتهم للشعب. بالطبع لم يأخذوا شيئا وزاد وضعهم ووضع البلاد سوءا.

فهل اتعظوا أو راجعوا أنفسهم؟ كلاّ ثم كلاّ. ها هم يرشحون ويترشّحون لدورة 2004 للتزييف ومصادرة سيادة الشعب وإذلال المواطن والسخرية من الديمقراطية. إنهم مصرّون ومقرّون العزم أكثر من أي وقت مضى على ترديد نفس المطالب لكن بصوت أقوى، لله درّهم، كل هذا والعصابات تسخر منهم وكذلك الشعب. لكن ما العمل وقد أصبح الهدف ليس تغيير الأوضاع وإنما توهّم الفعل وتوهّم الأهمية وحتى توهّم الوجود، لأن شعارهم أصبح: أنا أطالب إذا أنا موجود.

وثمة مستوى آخر يصول فيه هذا العقل الغريب ويجول. إنه ميدان المحاماة في القضايا السياسية. وحتى لا يكون هناك أدنى سوء الفهم، أقول إنني آخر من يطعن في نزاهة وإخلاص وتفاني وشجاعة مئات المحامين الذين تطوّعوا بكل نبل للدفاع عن المظلومين. لكنني أوّل من طعن ولا يزال في منهجيتهم للتعامل مع وقف الظلم والمظالم. كم رأيت، ومنهم أخلص الأصدقاء، يدخلون لقاعة الجلسة، ينثرون الدرر على رؤوس "البقر" وهم أوّل من يعلم أن القوانين ظالمة والقضاء مستغل والقاضي فاسد والحكم جاهز. ومع ذلك لم يخرجوا ولو مرّة واحدة على سيناريو "المحاكمة العادلة والعلنية بحضور الملاحظين الأجانب، وإنما انخرطوا فيه مما سمح

بتواصله كل هذا الوقت، بل شرّعوا له بدون وعي.
كم سمعت على امتداد عشرين سنة من حضور المحاكمات السياسية، من يطالب الممثل البائس، المكلف بقراءة الأحكام التي قررها البوليس، بتطبيق العدل، يغازله بجمل من نوع "نتوجه إلى القضاء بما هو حامي الحرية بموجب الدستور" الخ. وفي كل مرّة كنت لا أعلم هل يجب أن انفجر بالضحك أم بالبكاء. كم حاولت إقناعهم أن كلامهم في النافخات زمرا، أن كل العملية تمثيلية من ألفها إلى يائها، أنهم جزء منها ومهمتهم الوحيدة إضفاء الطابع القانوني على المظلمة بالقانون، أن الحلّ الوحيد لوقف هذه الموبقات هو أن يقلبوا الطاولة، أن يدينوا المسرحية برمتها، أن يقولوا للمخرج الخبيث: لن نكون كومبارس في مسرحيتك. عبثا.
هم أيضا يحتجون بفرصة لا تفوّت لفضح الظلم، في قاعة تضم مائة شخص نصفهم من البوليس ونصفهم الآخر من مناضلي حقوق الإنسان، والحال أن الجميع، بمن فيهم البوليس والنظارة والملاحظين الأجانب، مقتنعون أن ما يسمى محاكمة، مجرّد مسرحية ركيكة قاسية قسّمت فيها الأدوار... إنها طقوس على قربان السلطة المتوحشة للتضحية بالمتهم المسكين وكلّ الهدف منها التنكيل والترويع.
لكن مثل هذا العقل، بحكم تركيبته، أعجز من ابتكار وسائل نضالية سواء في القضاء أو في السياسة، توقف هذه المضحكات المبكيات أو يرفض، وهذا أضعف الإيمان، المساهمة فيها.
هكذا أصبح الجزء الأكبر من هؤلاء الناس، من فرط المطالبة، يمثلون "طلبة" بالمعنى العامي للكلمة، أي متسولين ركيكين في سوق السياسة. يا كريم متاع الله ... شوية حرية ونزاهة في الانتخابات.. يا كريم متاع الله حقي في الترشح ...يا كريم متاع الله عفو تشريعي عام .... يا كريم متاع الله شوية ديمقراطية على رحمة الوالدين .....يا ملاذ العدل، يا حامي الدستور، يا قاضي القضاة، براءة موكلي الله يخلّي لك وليداتك.
- الأنا فوق كل اعتبار: من ثوابت العقل المريض: كل فكرة لست صاحبها فاسدة، كلّ ايدولوجيا لا أعتنقها أفسد، كل مبادرة لست صاحبها تحارب، كل مشروع لست منطلقه يجهض، كل عمل لا أتحكمّ فيه خطر داهم، كلّ دائرة لست مركزها لا دارت ولا ارتكزت. و"إذا متّ ظمآنا فلا نزل القطر".
المضحك في هذا العقل أنه لم يفهم قاعدة القواعد في السياسة وفي الحياة: لكي تكبر اصغر، لكي تجد نفسك ضيّعها، بقدر ما تضحّي وتعطي وتتنازل للمصلحة الجماعية، بقدر ما يزداد قدرك ونفوذك.
إن هذا العقل المريض عاجز عن تحقيق المصلحة الخاصة عجزه عن تحقيق المصلحة العامة. هو لا يفهم أن المصالح الشرعية كالاعتبار والتكريم والمشاركة، لا تتحقق بالأنانية وإنما بنقيضها، أن الناس لا يحترمون ولا يتذكّرون ولا يكرّمون إلا من وضع الأنا بصدق في خدمة الـ"نحن".
- الإفتاء من فوق الربوة: المستقلّ في البلدان "الطبيعية" شخصية اعتبارية تعبّر عن أراء سياسية دون أن يكون لها طموح للسلطة. كان هذا شأن سارتر وكبار المثقفين في الغرب، ويمكن القول أن هذا وضع كبار الشخصيات الاعتبارية في بلادنا التي تحتاج الساحة السياسية لحكمتهم وتحكيمهم إن اقتضى الأمر. لكن المستقلّ القاعدي في بلانا غير هذا تماما. هو حزب سياسي بأتمّ معنى الكلمة لكنه حزب مكوّن من شخص واحد . هذا الحزب- الشخص لا يخجل من موازاة نفسه مع الأحزاب بل ويدّعي تفوقه الأخلاقي عليها موزّعا بكلّ صفاقة اللوم والنقد والدروس للجميع. هذا بخصوص الإفتاء. أما بخصوص الربوة فالرجل، أو المرأة، يربأ بنفسه عن السقوط إلى مستوى مشاكل التنظيم الذي يدّعي احتقاره. هو غير مستعدّ ليسلّم له بحريته العزيزة أو يتنازل له عن استقلاله الفكري الثمين. هو ينظر لكلّ هذا من برجه العاجي حيث لا قلق ولا إزعاج ....ولا خطر. وهذا بيت القصيد. انظر إلى ما خلف الموقف. ستجد أولا رفض مواجهة تبعات التنظم في نظام دكتاتوري يعاقب بشدّة على الأمر. أضف رفض اتخاذ مكان في خارطة الصراع من باب "ربط الخيوط" مع الجميع. أضف رفض تحمّل مصاعب العمل المشترك وما يتطلبه الأمر من صبر وذكاء وتفاعل وأعصاب حديدية وقدرة على بذل الجهد وتحمّل الأوجاع.
إنه الثمن الباهظ الذي يرفض المستقلّ دفعه والحال أنه ضريبة الفعل في التاريخ الذي لا تقدر عليه إلا التنظيمات. وبخصوص الطهورية، هل لنا أن نذكّر أنّ غاندي لم يكن مستقلا وإنما كان روح حزب، أنّ مانديلا لم يكن مستقلاّ وإنما روح حزب آخر، أنّ لوثر كنج لم يكن مستقلاّ وإنما كان زعيم كنيسة وحركة منظمة. يا لهؤلاء المستقلّين – المستقيلين المتبرّئين من كلّ طموح للسلطة، يتأففون من مجرّد ذكرها وهم يسعون إليها مقنّعين الوجه يريدونها غنيمة بلا تكلفة.
القاسم المشترك بين كل هؤلاء عامل واحد لا شريك له: الاستكانة للخوف الذي تستعمله السلطة الاستبدادية كأداة الحكم الأولى والتي تصبح هي بدورها ضحيته. انظر لسياسة المستبدّ وستكتشف أنها لا تفهم في العمق إن لم يؤخذ بعين الاعتبار الخوف الشديد من فتح الملفات، من اتضاح حجم الفساد والخيانة. لا علاج للرهبة آنذاك إلا بالإرهاب. أنظر إلى المعارضة الراكعة ستجدها تتضوّع خوفا في أقوالها والأفعال. أما بخصوص المعارضة المترنحة، فالخوف أكثر أناقة وخبثا وأجمل تغليفا. هو يستعمل بذكاء فضاء الصياح المسموح به، لكي يغطّي على عجز الإرادة عن اتخاذ المواقف والتصرفات الذي لجأ إليها الإنسان الكريم منذ بداية التاريخ وهو يتعرّض لمصادرة حقوقه: الرفض والمقاومة والتضحية والإصرار على قلب موازين القوى لصالح واقع جديد يبنى على أنقاض القديم.

ثمّة بالطبع علاقة جدلية بين كل أصناف الجبن هذه والانهيار المريع للعقل السياسي الذي يحكم اليوم بلادنا. فخوف ما يسمى بالمعارضة من المواجهة الحقيقية مع الاستبداد هو الذي فتح الباب بمصراعيه أمام الانتهازية لتصول وتجول وتستأسد على البلاد والعباد دون أن تخشى شيئا أو أحدا. هكذا لم تعد السلطة تخشى أن يصبح الكذب هو الحقيقة والتزييف هو الواقع والفساد هو الأخلاق...... أمّا المنهجية فهي تكتيك ومناورة لترسيخ هذه "المبادئ" في مصلحة الهدف الأسمى، أي الحفاظ أطول وقت على كنز علي بابا، الذي سقط بالصدفة بين المخالب القذرة و انتهاز الفرصة لن تتجدّد لاعتصار كل الممكن من اللذة والامتيازات ولو على حساب تدمير الوطن.
هذه الانتهازية المنفلتة من كل عقال، والتي تشكّل الطاقة التي تشحن كلّ أطراف اللعبة بنسب مختلفة ، وصلت بنفسها والبلاد إلى نقطة اللاعودة، فلم يبق لها سوى تغذية إرهاب الدولة لتداوي خوفها من المستقبل المظلم، الشيء الذي يزيد في تعزيز الجبن عند الطرف الآخر، الشيء الذي يفتح الباب لمزيد من الظلم والبغي وهكذا دواليك إلى انهيار البيت فوق رؤوس الجميع.
* العقل السياسي المتوحش:

إنه جملة الآليات الفكرية التي تنتج مواقف وسلوكيات تصرّف التمرّد ضدّ الاستبداد بغية احتلال مكانه.
لا غرابة أن يتميّز بالخصائص المعاكسة للعقل الجبان. إن الطاقة التي تحركّه ليست الانتهازية وإنما التعصّب. هو يتسّم بالصلابة المفرطة وبالإرادية المبالغ فيها وبتفضيل العنف والحركية على الخنوع والاستسلام. هو يكره الأنا ويبغض الفرد ويحقر دوره بالمقارنة إلى أهمية الجماعة. لذلك تراه مستعدّا دوما للتضحية بالشخص من أجل القضايا الكبرى التي ينسى أن أهميتها تكمن أساسا في خدمتها لهذا الشخص لأنه الممثل الشرعي والوحيد للوطن وللإنسانية.
وقد يكون من المهمّ الغوص في آليات هذا العقل الذي أسال أنهارا من الدماء والدموع عبر التاريخ والذي يبقى العقل الجبان بالمقارنة به أخفّ الضررين.
لنذكّر بأن العلماء يتشاركون في نفس طرق التفكير تجاه القضايا العلمية مهما تباعدت أجناسهم وجنسياتهم. تجد نفس الظاهرة عندما يتعلّق الأمر بالفنّ عند الفنّانين أيا كانت المدارس الفنّية التي يتبعون. كذلك نجد نفس مقومات الفكر عند عقائديين يدينون بالوفاء والولاء لهذا الدين أو لمنافسه، لهذه المدرسة الفكرية السياسية أو لتلك.
ومن الخصائص القارّة لهذا العقل الثقة المطلقة في منطلقات الايدولوجيا وعدم تعريضها للمسائلة والنقد والمراجعة والاعتقاد بشموليتها وكمالها، ومحاولة قراءة كل ظواهر الحياة على ضوءها حشرا وتعسّفا وتجاوزا مع شديد الرفض لتاريخيتها، ناهيك عن الاعتراف بأنّ لها حدود وسلبيات. فما يحتجّ أحد على نواقصها عند التطبيق إلا وسارع أصحاب الشأن إلى الادّعاء الساذج أنّه أسيء فهمها ثمّ تجنيد كلّ أنواع كلاب الحراسة للذود عن الحصن المهدّد والانخراط السريع في نظرية المؤامرة التي تحاك من الخارج لإفشال المشروع العظيم. أمّا "الحقائق" التي يدافع عنها هذا العقل فهي دوما كاملة مكتملة لا تحتاج للدليل. هي الفرضية والاستنتاج في نفس الوقت. هي نتاج إيمان متخشب متصلب متحجر لا حياة فيه يشكّل وسيلة دفاع ضد تعقيد الواقع ومحاولة يائسة لإنكاره وتخطيه أكثر مما هو جهل بوجوده. ومن مظاهر العقل المتوحّش الوثنية اللفظية. توضع كلمات لا حياة فيها في مصاف المقدسات، وتعبد كما تعبد اللات والعزى أي أن موضوع العبادة (المعنى) غير موجود، وأوانه لم يعد يتجسد في المصطلحات الميتة. فالعقلية البدائية تؤمن بتواجد صلة وثيقة بين اللفظة وما تعنيه مثلما يؤمن الساحر بقدرته على إلحاق الأذى بإنسان ما إذا ما ثقب عين دمية ترمز له. وبسرعة تتحوّل الوثنية اللفظية إلى الإرهاب اللفظي. فمن طبيعة العقل المتوحش صبّ اللعنات بكثير من السخاء على أعدائه لأن المستحوذ على الكلمة يعتبر نفسه قيما على الفكرة.
نحن إذن أمام عقل تبسيطي يلغي تعدد وتشعب الصلات بين المظاهر الطبيعية أو البشرية. فالصلات بالنسبة إليه قليلة واضحة لا برهان عليها ولكنها برهان على كل شيء، مع إلغاء سائر التجارب التي لا تدخل ضمن إطاره التفسيري. نحن أمام عقل يتعسّف على الواقع ولا ينتظر إلا أوّل فرصة ليتعسّف على البشر.
هكذا تراه حبيس منظومة التبرير والتنظير والطهارة والاطلاقية لمواقفه وشيطنة مواقف الآخر والتشدّد في رفضها وعدم محاولة فهمها من الداخل. هو مؤمن دوما أنه مصيب قد يتعرّض أحيانا للخطأ في مواجهة مخطئ قد يصيب أحيانا. إن هذا الفكر هو الذي تجده عند الأصولي الإسلامي بنفس الكيفية التي تجدها عند ألدّ خصومه تبعا لقانون يمكن أن يسنّ كالآتي: إن مواقف وتصرفات متطرف لائكي أو قومي أو ديني في صراعه مع متطرف ينتمي إلى الاتجاه المعاكس، ناجمة دوما عن تناقض مطلق في الأفكار وتشابه مطلق في التفكير.
* العقل الديمقراطي:
ربما قيل أن الكلام الذي سيتبع هو أيضا إفتاء من فوق الربوة.
كلاّ، إن هذه الأفكار حصيلة تجربة ربع قرن من الصراع وسط الساحة. الأهمّ من هذا أنها من بواكير عقل سياسي جماعي جديد يتشكّل ببطء وعمق داخلي وداخلكم وداخل المجتمع لتلبية مطالب وحاجيات عجز العقل القديم عن تلبيتها. كلّ مساهمتي أنني أنطق وأفصح بما لا زال مبهما وجنينيا في الكثير من العقول والقلوب التونسية العربية فهل لكم في هذه المبادئ والمقترحات، نتبادلها، نفكّر فيها سويا بصوت عال، نشيعها بين الناس على مرّ السنين والعقود، ليتبلور في شعبنا وفي أمتنا هذا العقل الذي لن تقوم قائمة للديمقراطية دونه.
الفكرة الأولى أنه لا مجال لمعارضة في ظلّ نظام دكتاتوري إلا تصنعا وافتعالا أو تزييفا وتغطية، إذ لا ينفع ضدّ الاستبداد إلاّ المقاومة، وأفضلها السلمية. إنّ من يريد أن يعارض في ظلّ الدكتاتورية، كمن يحمل السلاح في وجه الديمقراطية، مثلما ما حدث في أوروبا الغربية في السبعينات، أي أنّه يرتكب عملا عبثيا نتيجة عدم فهمه موقعه بالضبط ولا على أي مستوى هو يتحرّك.
لنسمّ إذن مبادئنا ومنهجيتنا وأهدافنا عقل المقاومة. وهذا عقل يجب أن يقطع كل صلة مع مبادئ ومنهجية وأهداف السلطة الاستبدادية وما أنتجت من أنصار و"معارضين". ولأن الجذور العميقة للعقل السياسي المريض هي كل القيم التي تسند وتغذي وتبرّر الجبن والوحشية، فإن جذور العقل السياسي السليم هي ضرورة كل قيم العروبة والإسلام التي تضع الجرأة والتضحية في قلب كل موقف وكل فعل. إنها قيم عمر بن الخطّاب والمتنبّي وقريبا زمنا ومكانا منّا الدغباجي وجمال عبد الناصر ومحمود طه وأبو جهاد.
ثمة شخصيتان حفظ تاريخنا وتاريخ الآخرين أروع الصور عنهما هما صلاح الدين وعبد القادر لأنهما مثلاّ خاصية بندرة أندر المجوهرات في أندر الكنوز: الفروسية.هذان الرجلان أروع ما في التاريخ العربي والإنساني لإدراكهما حكمة عميقة لا ينتبه لها المتوحشون وهي أن القوّة ليست العنف، أن القويّ من يتحكّم في قوّته وليس من يفرط فيها ليخفي ما به من جبن ومن ضعف. لهذا بقي عبد القادر وصلاح الدين في عقولنا وقلوبنا ولفضنا منها كلّ الوحوش الآدمية الذين تركوا المقابر الجماعية ومحتشدات الموت.
هذه القيم، توقف ضخّها في عروق حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية، فوصلنا للمستنقع الذي نتخبط فيه، نقيس عمق الانحطاط الشخصي والجماعي بدرجة تباعدنا عنها. ويوم تعود الجرأة والفروسية والتضحية سيعود لنا وهج الحياة وبريق الأمل ويصبح كل شيء ممكنا. كم كان شوقي محقا في قوله.

وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا.

لكن السياسة ليست أخلاقا مجرّدة نتباهى بها في أشعارنا. هي فعل في الواقع ومن ثمة لا بدّ للقيم أن تتواصل وأن تترجم عبر منهجية صارمة تتعامل مع العالم بقسوته وشراسته وصعوبة تغييره ، لتعتصر منه كل الممكن الذي يسمح لنا كأشخاص وكشعوب وكأمة بأن نأخذ نصيبنا من الدنيا، لا نتسوّله من أحد أو نجمع فتاته من على طاولة الأسياد.
ترتكز هذه المنهجية بالأساس على خطوط القوّة التالية :

- القبول بالتعددية: إن الديمقراطية عقلية لا تستقيم إلا داخل فكر يقبل بتباين الرؤى وبالتعقيد والنسبية والتعددية في الظواهر الطبيعية والإنسانية. هكذا يستحيل على أي إنسان أن يكون ديمقراطيا وهو أحادي تبسيطي يؤمن بالمطلق والأزلي، فهذا فكر لا يتماشى إلا مع انخراط تامّ في نوع أو آخر من الاستبداد. فالفكر الديمقراطي لا يقرأ الظواهر إلا من باب النسبية والتاريخية والتواضع والبحث عن القواسم المشتركة والحلول الوسطى وعدم النفخ على النار و ترك جمرات القضايا الخلافية تنطفئ شيئا فشيئا.
-الواقعية الإيجابية: انظر إلى تحليل الواقعية السلبية لوضع بلادنا. إنها لا ترى إلا النصف الفارغ من الكأس. هي تركّز على وجود المائة وثلاثين ألف بوليس والدعم الخارجي وتشتّت المعارضة وسلبية الشعب الخ . لكن الواقعية الإيجابية ترى أيضا أنه لا يوجد في المائة وثلاثين ألف بوليس عشرة مستعدين للمخاطرة بحياتهم من أجل العصابات الحاكمة...أن إفلاس نظام فاقد الهيبة، فاقد المصداقية، فاقد الشرعية، أصبح يستعصي على الإخفاء داخليا وخارجيا...أن الشعب كالبركان الخامد الذي لا يعلم أحد متى سينفجر ولكنه سينفجر ...أنّ العرّاب الخارجي يريد التخلّص من الدكتاتوريات الفجّة كالتي يرمز لها الدكتاتور، ليستبدلها بأخرى أجود تغليفا. معنى هذا أن واقعيتنا ترى النصف الفارغ وترى النصف الملآن من الكأس. هي تستند على تحليل متعدد الأبعاد ومعمّق للواقع ينطلق من ثراه وتعقيده وازدواجيته وديناميكيته المتواصلة. هي ترصد بدقة كل القوى المضادة للمشروع التحرّري في الوقت الذي ترصد بمنتهى الدقة كل القوى الدافعة له. هي التي لا تستهين لا بالعدوّ لا بالعراقيل، لكنها تراهن، حتى في أصعب الظروف، على قوى الخلق والتجدّد، التي لا تقلّ أهمية في فهم الواقع والتحكم فيه عن قوى العرقلة والتدمير. إنها واقعية الربان الماهر والشجاع المبحر على متن سفينة تتهددها الرياح العاصفة والموج الهادر وهي نفس الرياح والأمواج التي تدفع إلى الأمام نحو المرفأ وإلى الأعماق نحو الموت .
-الصلابة الإستراتجية:
إنّ شعار كل عقل سياسي سليم يعرف التاريخ هو أن الحقوق تمارس وتفرض وتفتكّ ولا تنتظر من الذين يستمدّوا وجودهم من انتهاكها. إن القوّة النفسية الضرورية لصراع طويل، مرير، خطر، لا تستمدّ إلا من الأنفة التي ترفض العيش في كنف الذلّ وخاصة من الإيمان بأن الشخص الكريم لا يعيش إلاّ لمهمّة تتجاوزه. إن العقل السياسي السليم من يفهم أنه أداة طيعة راضية لقوى مبهمة خفية تصنع من خلال تضحيات النضال ملامح وطن أجمل ومجتمع أكثر إنسانية. هل من سبب للعيش والموت أنبل وأهمّ من الشعور بأننا نصنع من آلامنا طريقا سيارة للحياة؟ إن المهمة الأولى لكل عقل سياسي خلاق هي رسم الخطط وتجنيد الناس وتوفير الإمكانيات وخلق الفرص لتغيير موازين القوى لصالح مشروعه. وفي هذا الإطار يجب أن يكون واضحا أن الصلابة لا تتعلق فقط بالمضمون وإنما أيضا بطرق تحقيق هذا المضمون، حيث لا أخطر على مبادئنا وأهدافنا من الفكرة الحقيرة التي تجدها في أفواه كل الانتهازيين أي "الغاية تبرّر الوسيلة". فلم يعرف يوما أن هناك غايات نبيلة تحققت بوسائل قذرة وإنما أثبت التاريخ دوما أن بداية الالتجاء إلى هذا التبرير هو بداية المنزلق الذي سيضعنا على طرفي نقيض وفي الاتجاه المعاكس لما نطمح لتحقيقه.
* المرونة التكتيكية:
بقدر ما يبقي الهدف دوما واضحا والخطّ مستقيما والوسائل شريفة والصلابة لا تلين في أي من هذه المستويات، بقدر ما يجب على الإنسان أن يكون مرنا في طرق تحقيقها. ثمة جملة من القواعد التي أثبتت أنها تحقق النصر، وإن لم تحققه فهي على الأقل تحفظ السمعة والشرف.
- قيّم دوما النتائج وأعد الكرّة: إن الفعل في السياسة هو دوما عمل شاق تتراكم فيه التجارب الفاشلة على التجارب الناجحة. وحتى تتغلب كمّا ونوعا التجارب الناجحة، لا بدّ في كل مرحلة من تقييم وسائل العمل للمراجعة أو التخلّي أو التحسين. أمّا سيدة الموقف فهي دوما التجربة لا غير.
- اخفض لهم جناح الذل من الوطنية .
لا تقاد المعارك السياسية، خاصة في فترة المقاومة، إلا داخل تنظيمات قوية متماسكة. هذه التنظيمات معرضة لكثير من الصعوبات نظرا للمعركة الدائمة داخلها على السلطة والنفوذ، وهذا قانون لا معنى لتجاهله أو التنديد به من موقع الطوباوية. ومن خصائص العقل المريض تغليب الصراع الداخلي على الصراع الخارجي . ومن خصائص العقل السليم تصريف التناقض الداخلي بأقصى قدر ممكن من الحكمة والاعتدال والتنازل، طالما لا يمسّ بالثوابت ، حتى يمكن تجنيد كل الطاقات ضدّ العدوّ أو الخصم .
ومن أهمّ مظاهر هذه المرونة التكتيكية ما يلي:
- اترك للصلح بابا ولعدوك منفذا: قال نابوليون: ابني قنطرة من ذهب للعدوّ الفارّ. تسنّ قوانين الحرب في الصين القديمة أنّه إذا حاصرت عدوّا فإياك وإياك أن تحاصره من الجهات الأربع حتى يستطيع الفرار وإلا استمات في الدفاع عن نفسه وكلفك النصر عليه غاليا. لا بدّ للعقل السياسي السليم أن يترك دوما بابا للصلح ومنفذا للعدوّ لأن المهمّ ليس النصر بقدر ما هو النصر بأقل تكلفة ممكنة.
- إذا هزمت لا تستسلم، وإذا انتصرت لا تنتقم: نحن نقيس دوما نجاحنا بالزمن البشري. لكن الفشل أو النجاح في السياسة، بما هي تحقيق تقدّم الأوطان والمجتمعات لا يقاس إلا بزمن الشعوب وهو جدّ طويل. لذلك على المرء الواثق من طريقه، ألاّ يستسلم أبدا للهزيمة، لأن مثلنا الشعبي محق في قوله "ما يعجبك في الزمان كان طوله" أو "الدوام ينقب الرخام". لا بدّ أن تكون كلّ هزيمة منطلقا للمراجعة والتقييم والتغيير واكتساب مزيد من الصلابة والخبرة. وعندما يأتي النصر، فلا مجال لانتقام رخيص، فالانتقام في حالة النصر والنكوص على الأعقاب عند أوّل هزيمة، من خصائص العقل المريض المطبوع دوما بطابع النذالة والجبن.
- لا تكن مقلّدا أو سجينا لفكر أو هيكل وإنما مبتكر لهذا وذاك.
يتطلب الأمر أن تكون مستقل الفكر عن كل ايدولوجيا لا تتعامل مع أي معضلة إلا بعد تفكيكها إلى كلّ أجزائها والانتباه لتعقيدها وترابط مستوياتها لكن كن دوما ملتزما ومنسجما في جهد جماعي داخل المؤسسة. لكن إذا فرغت المؤسسة من "السلعة" فلا تهاجر للبرج العاجي وإنما بادر إلى خلق أدوات جديدة لأنه لا غنى عنها. إن المهمّة على مرّ السنين بناء أحسن المؤسسات والأنظمة وتعهّدها دوما لأنها هي وحدها القادرة على استغلال وتوظيف الطاقات الفردية وهي وحدها القادرة على تحقيق الفعالية والنجاعة التي تميز مجتمع حيّ وخلاّق. معنى هذا أن العقل السليم لا يطبق الوصفات وإنما يجرّبها ويتجاوزها باستمرار لما هو أرقى وأنجع.
بهذه العقلية يمكننا اليوم أن نتصور مؤسساتنا وبها يمكننا أن نبنيها يوم نكسر القيد.
***

الحلقة المقبلة : أي إصلاحات على نظام ما زال في طور التجريب ؟

www.moncefmarzouki.net